

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

نفحة اليمن — مكانة مصر بين الأمم العربية —
محاسبة النفس — معاداة الأرواح والعيون

نفسه اليمن

منذ أعوام لا أدرى كيف مضت وانقضت كان في الديار المصرية كتاب منشور اسمه « نفحة اليمن » ، فبا يزول به الشجن » ، وهو كتاب في المواعظ كان له في نفسي تأثير . ولو شئت لقلت إن إحدى المواعظ التي وردت فيه كانت دستوراً لحياقي في البيت ، ولأسلوب في معاملة الأهل . فإين من ينشر هذا الكتاب من جديد ، عساه يؤدي خدمة يحتاج إليها الناس في هذا الجيل ؟

ومنذ أعوام لا أدرى كيف مضت وانقضت كان اسم « حسن البنا » هو اسم الحكيم الذي ألهمته الغيوب مصابيح الناس في أواخر الزمان ، وكانت أحكامه المنظومة تُنشد على « الربابة » في سهرات الريف

ومنذ أعوام لا أدرى كيف مضت وانقضت كانت رحلة معاذ بن جبل إلى اليمن مما يتداوله أكثر الناس ، وكانت فيها عظات قليلة الأمثال

لنفسى ، وإلا لقلت عن الذي سمانى أميراً للشعراء أنه الحكم الوحيد في قيم الشر وأقدار الشعراء

فهل هي إذن مسألة فهم وصدق ، أم مسألة حسد وكسل ؟ كلا . إنما هي مسألة حسد وكسل ولا زيادة ! ولولا الحسد والكسل لخلج هؤلاء الساكنين من أنفسهم إذ يهجمون في مراقبهم وينعمون على الكتاب المشهورين شهرتهم ولا ذنب لهم إلا أنهم يصدرون الكتاب بعد الكتاب وأولئك الساكنين يقبلون شهادة ميلادهم ولا يزيدون

إنه عرض واحد هذا الحسد وهذا الكسل اللذان يفسران النزوع إلى الشيوعية ، ويفسران استعجال الشهرة ويفسران كل انتقاد مريض لا يصحبه عمل ولا تصحيح

هياس محمود العقاد

واليوم تلقيت نفحة جديدة من نفحات اليمن جاد بها أحد أعضاء « نادى الإصلاح العربى » فى عدن وهو السيد محمد بركات ، فهل تصل مجلة الرسالة إلى عدن كما تصل إلى السيد عثمان شبيكة فى ملكال بالسودان ؟

كانت أخطار الحرب أوهمتنا أن الصلة انقطعت بيننا وبين اليمن والمهند ، وأن التخاطب مع سكان تلك البلاد لن يتيسر إلا بعد حين أو أحيان

فيا فرحة القلب لخطاب يصل من عدن بعد أن قيل إن وسائل النقل البرى والبحرى والجوى قصرت قصراً على معدات الحرب !

لليمن تاريخ فى العمران يجمله أكثر الناس ، فلنفحصه فى كلمات :

أهل اليمن هم أول أمة فى التاريخ نظمت الرى ، بفضل ما عملوا فى سد مأرب^(١)

ومن أبناء اليمن كان من نظموا الرى فى الأندلس ، والأوربيون يعترفون بأن تنظيم الرى فى بلادهم منقول عن عرب الأندلس

وأول من فكر فى إقامة خزان أسوان هو الحسن بن الهيثم ، وهو عربى وقد على مصر من العراق منذ نحو عشرة قرون ، ولعله يعنى الأصل

والهينيون هم أقطاب الفاتحين لجزر البحر الهندي ، ولهم أباد فى مد لغة العرب إلى الهند والصين

والظاهر أن التنافس بين أبناء الجزيرة كان له صدق فى العالم القديم ، فكان أبناء الشمال وهم الفينيقيون يهتمون بتحضير أوردبا الشرقية ، وكان أبناء الجنوب وهم الحضرميون يهتمون بتحضير آسيا الغربية ، ومن هذا الجهاد وذاك رسخ السلطان الحضرى لعرب ذلك الزمان

والمفهوم أن قصة السندباد البحرى هى أغرب قصة روتها السياحات البحرية ، ولعلها أظرف وألطف من بعض قصص الإغريق ، فهل نكون إلا من إنشاء حضرى مفلور على مقارعة الأمواج فوق ألواح هى بالنسبة إلى بواخر اليوم خيوط من العنكبوت ؟

(١) مأرب بدون همز ، ويخطئ من يهزه فيقول مأرب ، لأنه غير مهور فى لغة الأصلية وهى الحيرية ، كما أفادني السنيور تالينو فى محاضراته بالجامعة المصرية

يُحْتَل إلى - ولعل هذا هو الواقع - أنى لا أؤدى حقوق القلم كما يجب ، فأنا أحمى شؤوننا كثيرة ، وأسكت عن آراء لو دونتها لكان لها فى عالم الفكر مكان وزيد فى الضجر أن لحياتى ألواناً جديدة بأن تقدم أئمن الغذاء لقلمى ، فكيف يفوتنى أن أنتفع بتلك الألوان ؟

قد يقال إن ظروف الحرب لها دخلٌ فى الحد من الحرية القلمية ، لأنها تقهرنا على مراعاة أمور لم يكن من الحزم أن نراعيها فى أيام السلام

وهذا عذر غير مقبول ، لأن الشؤون التى تمس الحرب ليست كل ما يمتلج فى صدور الرجال ، فهناك معضلات إنسانية تساور العقول والقلوب فى كل زمان ، وهى معضلات لا تهادن الناس ولو كانوا فى ميادين القتال

وربما قيل إن الشؤون التى تعيقها ظروف الحرب لا تعيقها ظروف المجتمع ، فقد تكون الرقابة التى يفرضها الجمهور على الأقلام أقسى من الرقابة التى تفرضها الحكومات فى أيام الحروب وهذا أيضاً عذر غير مقبول ، فى مقدور المفكر أن يعالج شؤون المجتمع بأسلوب يخلق الحب ويبعد العدا

يظهر أن الآفة هى فى طريقة الطب المجتمع ، الطريقة التى تلبس ثوب السيطرة بأقلام الناصحين ، ونحن فى الأغلب ننسى أن فى فطرة الناس ميلاً إلى الدفاع عما يتورطون فيه من ضروب الانحراف ، ونجهل أن العنف فى النصيح قد يخلق للعيوب أنصاراً يعملون سيئاتها حسنات

أنا موقن بأن سياسة القلم نموذجاً فى أكثر ما نكتب ، وسياسة القلم معبى لم نلتفت إليه . ألا ترى كيف تقضى العمر فى شقاق مع القراء ؟ أين الذى حاول أن يقدم النصيحة المرة فى كلمة مفلفة بمجاج النحل ؟

وأين الذى واجه الجمهور بأسلوب منزه عن الاستعلاء ؟ هذه الحال تشبه أن تكون مريضاً من الأمراض القلمية ، وللا أقلام أمراض

وأعترف بأن تحرير القلم من الآفات النفسية يحتاج إلى رياضات لا تقدر عليها فى جميع الأحيان ، لأن الرجل قد يقدر على محاسبة الجمهور ثم يعجز عن محاسبة النفس

وهنا لطيفة من اللطائف لم يتحدث بها متحدث ، وهى ديباجة الشعر فى مصر لآخر أيام العهد الفاطمى وأوائل العصر الأيوبي ، وهى ديباجة أذاعها الشاعرُ عمارة البهنسى ، وعن هذا الشاعر أخذ شاعرنا أحمد شوقي عبارة أو صورة ساذكها يوم يجيئ مكانها فى هذه الأحاديث

ثم ماذا ؟ ثم كان اليمن يد مصر فى التعرف إلى الشرق البعيد ، فبفضله وصلت السفائن المصرية إلى آفاق لا تعرف مداها اليوم إلا بأجنحة الخيال
ثم ماذا ؟ ثم أعتذر لأستاذنا أحمد زكى باشا ، فقد عبت عليه أن يقول فى محاضراته بالجامعة المصرية إن منعاء كانت فى قوة باريس أو برلين

وهل حفظنا حق اليمن فى التاريخ ؟
قيل وقيل إن سقوط بغداد بأيدي الغول أوجب رحلات علماء العراق إلى مصر فكانت النهضة العلمية والأدبية بالديار المصرية فأن من يذكر أن سقوط سد مأرب أوجب رحلات العلماء من الجنوب إلى الشمال فكانت النهضة الأدبية والعلمية بالديار المدناية ؟

أجمع مؤرخو الأدب على أن إصرأ القيس هو فاتحة الشعر العربى فى العهد الجاهلى ، ونصروا على أنه يعنى العروق ، فأن من يذكر أنه من كئيدة ؟ وأن من يذكر أن كئيدة كان لها محلة بالكوفة نُسب إليها التنبى فكان الكيندى ؟
لنا فى اليمن كلام بضيق عنه هذا المجال ، وسنرجع إليه بتفصيل وتفاسيل

ملف من مذكرات الأهم العربية

فى جرائد سورية وفلسطين ولبنان والعراق كلام كثير عن مكانة مصر بين الأمم العربية ، وجرائد تلك البلاد تذكر بالخير مؤازرة مصر لفكرة الحلف العربى
ويجب أن نذكر جميعاً أن ما يدور حول الوحدة العربية لبس إلا تميميدات ، ولا يعرف أحد متى تتحقق تلك الوحدة على الوجه المنشود

محاسبة النفس

بدأت أشعر بضجر فى هذه الأيام ، وأخذت أشعر باتعباض الصدر من حين إلى حين ، فأسبب هذه الحال ؟ وما هو الدواء ؟

هل يعرف كيف تنظر حتى يعرف كيف توحى ، وهي
عجوبة الأعاجيب في النظر والإبصار ؟
ومع هذا فقدره الأرواح أعجب وأغرب ، فهي ترسل السهام من
إقليم إلى إقليم ، وقد تصادق وتعادى وأصحابها أموات في عرف الناس
ذلك الفكر الذي يبرر الآفاق بغزو العقول بعد أن تمر على موته
آلاف السنين . ما سر قوته الروحية ؟ ما سره ؟ وقد اجتاز أسوار
روما بعد ألفي سنة ليقفل أحد تلاميذى بالقاهرة ؟
وذلك الشاعر الذي قال :

إذا نُشِرَتْ ذَوَائِبُهُ عَلَيْهِ حَسِبْتَ الْمَاءَ رَفًّا عَلَيْهِ ظُلًّا
هل كان يتوهم أن المطربة فتحية أحد منتقل خياله بالذباغ إلى
جميع الأقطار العربية بعد أن نسيه القاهريون ؟
سمعت هذا البيت مع الأستاذ سعد كامل فعجبنا من قدرة
الأرواح على اختراق الأزمان
وقال الشريف الرضي :

سهم أصاب وراميه بذى سَكَمٍ من بالعراق لقد أبعدت مرامك
فهل كان يخطر في بال الشريف أن هذا المعنى سيكون حقيقة
لا يجازأ فيها سيخلف عصره بأجيال طوال ؟
وقال شاعر قديم :

غَشَّتْ سُلَيْمَى بِالْحِجَا زِرْفَاطِرْتِ مِنْ فِي الْعِرَاقِ
فهل كان ينتظر ذلك الشاعر أن تصح نبوءة فأسع من القاهرة
صوتاً بغزو روحى وأنا في سهرة بمدينة النجف ؟
لقد قضى ذلك الصوت بأن تكون ليلتى ليلاء ، وأن أعود
إلى بغداد وأنا مفطور الفؤاد
وما معنى قول البهاء زهير شاعر الفطرة المصرية :

إِنْ حَالٌ لِمَجِيبٍ مَا يُرَى أَعْجَبُ مِنْهُ
كُلُّ أَرْضٍ لِي فِيهَا غَائِبٌ أَسْأَلُ عَنْهُ
أليس شاهداً على استبداد الأرواح بالقلوب ، وإن تباعدت البلاد ؟
أما بعد فهذه الكلمة تحية للروح التى يئست من وفائى ،
الروح التى مَنَنْتُ عليها بإعلان حبي ، لتميش فى أمان من
سفاهة الرقباء
يا مصدر الوسى ، على رغم البعد والياس ، ويا روحاً هي
الروح ، ويا تحفة فنية ساغها الفنان المعبود ، ويا من لا أسمى
ولو سُئِلْتُ يوم الحساب فى حضرة صاحب الجبروت ، سلام
عليك وألف سلام

وهناك آفة أخطر وأفظع ، وهي آفة المبالغة فى تصوير
الكمال الذى ننشده للإنسانية ، كأن ننتظر أن يعيش الناس
بلا أحلام ولا أوهام ، وكأن زجوا أن يسلموا جميعاً من طغيان
الأهواء ، كأن الناصحين سلموا جميعاً من طغيان الأهواء !
أىكون من الخير أن ندعو إلى تجفيف البحار والأنهار
ليأمن الناس القرق ؟

أم يكون من الخير أن نعلم الناس السباحة ونسكت عن
تجفيف البحار والأنهار ؟
هنا مناط المعضلة الأخلاقية ، المعضلة التى حيرت كرائم
الآلباب

الشخصية الخلقية هي الشخصية المزودة بموجبات الجذب
والدفع ، وهي الشخصية السليمة من الضعف ، ولن تكون
كذلك إلا حين تحارب فى ميدان من ميادين الأهواء
ولهذه الفكرة شروح سنعود إليها يوم نستطيع بحاسبة
النفس على التهييب والترقب ، ويوم يكون الصدق هو أشرف
ما نسمو إليه فى عالم البيان

معارف الأرواح والمعبود

لكل روح معدن أو جوهر أو عنصر ، إلى آخر الألفاظ
التي تعبر عن الأصول
والأرواح توحى بأساليب لا تعرفها الميئون ، وهل كانت
الميئون إلا وسائل الأرواح فى الإبحاء ؟ أستغفر الحب ، فقد قلت
من قبل إن للميئون وجوداً ذاتياً يستقل عن الروح بعض
الاستقلال فى بعض الأحيان
وما سر الميئون على التحقيق ؟

هل يعرف أحد كيف كُوِّنت تلك الخلائق اللطيفة بهذا
الوضع اللطيف ؟
الوجود كله مدين للميئون ، فهي التى شهدت بما فيه من جمال
وجلال ، وهي التى قالت إنه وجود

وما هذا الصنع العجيب ، صنع الله فى إبداع الميئون ؟
ينقضى الدهر ولا ينقضى العجب من القدرة المطوية فى
سريرة مخلوق رقيق اسمه الميئون ؛ وستمر أزمان وأزمان قبل أن
يعرف سر هذه الجارحة الظلوم
وما قدرة الطب فى تحليل هذه القوة الصمدانية ؟